السَّنة التَّاسعة والسبعون وخمس مئة

في يوم الأحد عاشر المحرَّم تَسَلَّم السُّلْطان آمِد، ودخل إليها، وجلس في دار الإمارة، ثم سَلَّمها وأعمالها إلى نور الدين محمد بن قرا رسلان، وكان وَعَدَه بها لما جاء إلى خدمته.

ذِكْرُ طرفٍ من أخبارها:

كان مدبِّرها قديماً مؤيَّد الدِّين عليَّ بن نيسان، وتوفِّي، فتولَّى أمرها ولدُه مسعود بن علي، وكان لآمد أميرٌ قديم يقال له: إيكلدي من أيام السَّلاطين القدماء، وكان شيخاً كبيراً، وله ولد اسمه محمد صغير، ومات إيكلدي وحكم مسعود على محمد، وكان [يظهر][1] أنَّه يحفظ عليه آمِد، وكان نورُ الدّين يدَّعي أنها أُخذت من أبيه قرا رسلان أو من جدِّه، وأقام أبوه قرا رسلان يحاصرها زماناً، فلم يقدر عليها، ومات بحسرتها، ولما أخذها صلاحُ الدِّين خرج الرئيس محمود بن علي ومحمد بن إيكلدي منها بأموالهما وحريمهما إلى المَوْصل، وأعانهما صلاحُ الدين بدوابّ تنقل بعض قماشهما، فحملا ما خَفَّ حمله، وعَجَزَا عن حمل كثيرٍ من الذَّخائر والأسلحة.

وكتَبَ الفاضل إلى الخليفة كتاباً في الفَتْح، منه: والخادم يتوقَّع في جواب هذا أن يُمَدَّ بجيشٍ هو الكلام، ورِماحٍ هي الأقلام، وليس ذلك لوسائل تقدَّمت من دولةٍ أقامها بعد مَيْلِ عروشها، ولا لدعوةٍ قام فيها بما تصاغَرَتْ دونه هِمَمُ جيوشها، بل لأن هذه الجزيرة الصَّغيرة منها تنبعث الجريرة الكبيرة، وهي دارُ الفُرْقة ومدار الشُّقَّة، ولو انتظمتْ في السِّلْك لانتظمَ جميعُ عسكر الإسلام في قتال أهل الشِّرْك، ولكان الكُفْرُ ينقلب على عقبيه، ويُلْقي بيديه، ويُغْزى من مِصْر براً وبحراً، [ومن الشام][2] سراً وجهراً، ومن الجزيرة مَدًّا وجَزْراً.

وفي المحرَّم عادَ السُّلْطان، فقطع الفرات قاصداً إلى حلب، واجتاز في طريقه بعين تاب، وبها ناصحُ الدِّين محمد بن خُمارتكين، فنزل إليه، وقام بالضِّيافة فأبقاها عليه، وجاءه ابنُ السَّاعاتي، فأنشده أبياتاً منها: [من البسيط]

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا يقتضيها السياق.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من «الروضتين»: ٣/ ١٥٥ يقتضيها السياق.

فانهضْ إلى حلب في كلِّ سابقة سُرُوْجُها قُلَلٌ تُغْني عن القُلَلِ
ما فَتْحُها غيرُ إقليدِ الممالك والدَّ اعي إليه جميعُ الخَلْقِ والمِلَلِ[1]

فنازل حلبَ في سادس عشرين المحرَّم، ونزل بالمَيْدان الأخضر، وباشر القتال بُكْرةً وعشياً، وزحف يوماً أخوه تاج الملوك بُوري، فجاء سهمٌ في عينه، فحُمِلَ مريضاً، فمات في الثَّالث والعشرين من صفر، ثم عَلِمَ عماد الدين زَنْكي أَنَّه لا طاقةَ له به، وضجَّ من اقتراح الأمراء عليه، فقال لحسام الدين طُمان: اخرج إلى صلاح الدين وسَلْه في الصُّلْح. [فخرج سراً، ولم يعلم به أحد، فقرر الصلح][2] وأن يردَّ عليه سنجار وأعمالها والخابور ونصيبين، ويسلم إليه قلعة حلب، وعَلِمَ النَّاسُ، فأصبح الأمراء، فخرجوا إلى صلاح الدِّين، فخلع عليهم، وجَعَلَ أهل حلب تحت القلعة إجَّانة وثياباً وصابوناً، وصاحوا على عماد الدين: يا فاعل، يا صانع، انزل، فاغسلِ الثياب مثل المخانيث، ما يصلح لك غير هذا. وعملوا فيه الأشعار، [وغنوا بها في الأسواق][2]، منها: [من المتقارب]

وبعتَ بسنجارَ خيرَ القِلاعِ ثَكلتُكَ من بائعٍ مشتري

[3][فلما كان اليوم الثالث والعشرين من صفر توفي تاج الملوك أخو السلطان، فحزن عليه حزناً عظيماً، وجلس للعزاء، ونزل إليه عماد الدين، فالتقاه السلطان، وأكرمه وأخدمه] ، وقدَّم له الخيول العِتاق والتُّحَف الجليلة، وعاد [عماد الدين] إلى القلعة، وأقام السُّلْطان كئيباً حزيناً على أخيه، وكان يبكي ويقول: ما وَفَتْ حلب بشعرة من أخي. [وقيل: إنه قال: ما غلت حلب ببوري، والأول أليق بالسلطان، لأنه ما كان في البيت مثل بوري][2].

---

(١) ديوان ابن الساعاتي: ٢/ ٣٨٢ـ٣٨٤.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) في (ح): ولما مات بوري حزن عليه السلطان وخدمه وأكرمه وقدم له...، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وسار عمادُ الدِّين إلى سنجار من يومه، وأقام السُّلْطان بالمخيَّم غير مكترث بحلب لما جرى عليه من وفاة أخيه، ثم صَعِدَ إلى القلعة سَلْخ صفر، فأنشده ابن القاضي زكي الدين محمد بن علي القُرَشي قاضي [قضاة][1] دمشق أبياتاً، منها: [من البسيط]

وفتحكُمْ حلباً بالسَّيْفِ في صفرٍ ... مبشِّرٌ بفتوح القُدْس في رَجَبِ

[[2]فعجب الناس من رمية من غير رام، فكان ـ كما قال ولكن بعد أربع سنين] ـ الذي خطب بالقُدْس لما فتحه السُّلْطان، وولى السلطان القضاء بحلب محيي الدِّين بن زكي الدين، والقلعة سيف الدين أزكش، والدِّيوان ناصح الدِّين إسماعيل ابن العميد، وأعطى تل باشر وتل خالد لبدر الدين دُلْدُرم بن بهاء الدين بن ياروق، وأعطى قلعة عَزَاز لعلم الدين سليمان بن جَنْدَر، ثم رحل عن حلب يوم السبت ثاني عشرين ربيع الآخر، ودخل دمشق ثالث جمادى الأُولى، فأقام بها أياماً، ثم خرج إلى الفَوَّار، فأقام به على رأس الماء.

وفيها بعث الخليفة عسكراً إلى دقوقا، فأخذها.

وفيها عصى بهاءُ الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك بإربل على المواصلة، وكاتب السُّلْطان، وانتمى إليه، فبعثَ إليه منشوراً بإربل، وعصى سنجرشاه بن سيف الدين غازي بالجزيرة، وهو صبيٌّ صغير، وسببُ هذا أَنَّ مجاهد الدين قَيْماز النَّائب بالمَوْصل كان وصيَّ زين الدين وسيف الدين على ولديهما بإربل والجزيرة، فأشار محمود بن زلفَنْدار على عِزِّ الدِّين مسعود بالقبض على مجاهد الدين قيماز حسداً منه له، فقبض عليه، فاختلتْ أمورُ البلاد وعَصَتْ عليه، فأطلقه، وولَّاه قلعة المَوْصل، وأحسنَ إليه، وقَبَضَ على ابن زلفَنْدار وعلى كلِّ مَنْ أشار [عليه][3] بقبض مجاهد الدين.

وفيها كانت غَزَاة بَيْسان: رحل السُّلْطان من الفَوَّار في جُمادى الآخرة، فنزل بَيْسان وقد هَرَبَ أهلها، فقدَّم بين يديه جُرْديك النُّوري، وجاولي الأسدي وجماعة من

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (ح): فكان كما قال بعد أربع سنين، وعجب الناس، وهو الذي خطب...، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

النُّورية، فجاؤوا إلى عين الجالوت والفرنج على الفولة، فصادفوا على عين الجالوت طائفةً من الفرنج، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا مئة فارس، ورحل السُّلْطان إلى الفولة يطلب المصافّ، فتحصَّن الفرنج بالرَّاجل، ولم يخرج منهم أحد، فرحل السلطان إلى الطُّور، فلما كان في الليل ساروا طالبين عكا، ورحل السُّلْطان خلفهم يقاتل السَّاقة، فقتل منهم جماعةً، ودخلوا عكا، فعاد السُّلْطان على صفد، فنهب وأحرق، وعاد إلى دمشق.

ثم خرج في رجب إلى الكَرَك، وكان أخوه العادل قد كَتَبَ إليه أن يعوِّضه بحلب عوض مِصْر، فكتَبَ إليه أن يوافيه على الكَرَك، فالتقيا على الكَرَك، ونَصَبَ السُّلْطان عليها المجانيق، وحشد الفرنج ونزلوا [الواله][1] قريباً من الكرك، فرأى السُّلْطان أن حصار الكرك يطول، فعاد إلى دمشق ومعه أخوه العادل، فأعطاه حلب، فسار إليها، وبها الملك الظاهر ولد السُّلْطان وسيف الدين أزكش، فسلَّماها إليه، وقدم الظاهر دمشق ومعه أزكش في شوال، وأقام الظاهر في خدمة أبيه، راضياً في الظَّاهر، وفي الباطن ما فيه.

وفيها وصل عبدُ الرَّحيم شيخُ الشيوخ من بغداد رسولاً إلى صلاح الدِّين، ومعه محيي الدِّين أبو حامد محمد بن قاضي القضاة كمال الدين الشَّهْرُزُوري رسولاً من المواصلة، فأغلظ [محيي الدين][1] للسلطان وقال: [[2]تحلف لعز الدين أن هذه] الجزيرة وما يقطع الفرات من ناحية المشرق يكونوا مضافين إلى عز الدين، ولا تعلُّق لك بهم، وإلا جاء البهلوان وملوك العجم إليك، واتفقوا عليك. فغضب السُّلْطان وقال: أنا قاصدٌ إليكم، فإذا فرغت منكم سرت إلى البهلوان.

وفي ذي الحِجَّة أمر الخليفة أن لا يستخدم في الديوان يهودي ولا نَصْراني، ولا يُسْتعان بهم في عملٍ من الأعمال، فأُنهي أن ابن زطينا اليهودي ليس له نظيرٌ في الكتابة، فكَتَبَ على المطالعة: مات ابن زطينا، أيش نعمل؟ نبطل الديوان؟ فأسلم ابن زطينا يومئذٍ.

وحجَّ من العراق طاشْتِكِين.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (ح): «يحلف أمراء له على أهل الجزيرة»، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وفيها توفي

بوري بن أيوب[١]

تاج الملوك، أبو سعيد.

ولد في ذي الحِجَّة سنة ستٍّ وخمسين وخمس مئة، وكان الله قد جَمَعَ فيه محاسن أخلاق ومكارم وشيم، ولطف طباع، وكرماً وشجاعة، وفضلاً وفصاحةً، وكان أديباً شاعراً مترسِّلاً، وله ديوانُ شعر.

[[٢]وذكره العماد الكاتب في «الخريدة»، وأثنى عليه، وأنشد مقطعات من شعره، منها في رمضان]: [من الكامل]

رمضانُ بل مرضانِ إلا أنَّهم ... غَلِطُوا إذاً في قولهم وأساؤوا
مرضانِ فيه تحالفا فنهارُهُ ... سُلٌّ وأمَّا ليلُه استسقاءُ

وقال: [من الوافر]

شَرِبْتُ من الفراتِ ونيلُ مِصْرٍ ... أحبُّ إليَّ من شَطِّ الفرات
ولي في مِصْرَ مَنْ أَصْبُو إليه ... ومن في قُرْبه أبداً حياتي
فقلتُ وقد ذكرتُ زمانَ وَصْلٍ ... تمادى بعده روحُ الحياةِ
أرى ما أَشْتَهِيْه يفرُّ مني ... ومن لا أَشْتَهِيْه إليَّ ياتي

وقال [وقد بالغ][٣]: [من الخفيف]

يا غزالاً يُميت طوراً ويُحيي ... وَهْوَ بُرْءُ السَّقام سُقْمُ الصَّحيحِ
هذه المعجزاتُ ليست لظَبْي ... إنما هذه فِعالُ المسيحِ

وعاش ثلاثاً وعشرين سنة وشهوراً.

---

(١) له ترجمة في «الخريدة» بداية قسم شعراء الشام: ١٣٤ـ١٣٩ ، و«الروضتين»: ٣/ ١٦٦ ، «وفيات الأعيان»: ١/ ٢٩٠ـ٢٩٢ ، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٩٦ ، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢٦٥ .

(٢) في (ح): فمنه، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

محمد بن بختيار بن عبد الله[١]

أبو عبد الله الأبله الشَّاعر، وإنَّما سُمِّي الأبله لذكائه، [وهو من الأضداد][٢]، كان خبيثَ اللِّسان، هَجَّاء، [[٣]هجا أباه وأمه وأخاه، وقد ذكرناه في ترجمة الوزير[٤] وقد ذكره أبو المعالي الكتبي في «ملح الملح»، وقال: من شعره في رجل كفل يتيماً، وكان منهوماً بالغِلْمان]: [من مجزوء الكامل]

يا ذا الذي كَفَلَ اليتيـ ... ـمَ وقَصْدُه كِفْلُ اليتيمِ
إن كنتَ تَطْمَعُ في النَّعيـ ... ـمِ فقد حَصَلْتَ على الجحيمِ

[ذكر واقعة عجيبة جرت له][٢]:

كان الأبله يصحب حاجب الباب ابن الدوامي ويمدحه، خَرَجَ معه إلى بُسْتان بباب مُحَوِّل، وكانت ليلة مُقْمرة، [[٥]فأخذ ينشد لابن الدوامي قصائد، منها]: [من المديد]

زار من أحيا بزَوْرته ... والدُّجى في لون طُرَّتِهِ
قمرٌ يثني معانِقُهُ ... بانةً في ثِنْي بُرْدَتِهِ
يا لها من زَوْرَةٍ قَصُرَتْ ... فأماتتْ طُولَ جَفْوَتِهِ
بتُّ أستجلي المُدام على ... غِرَّة الواشي وغُرَّتِهِ
حين حلَّتْ عَقْدَ مُصْطبري ... عُقَدٌ من سحر مُقْلَتِهِ

فلما أنهاها قال له ابنُ الدوامي: يا حُجَّة العرب، هذه القصيدة لك؟ فقال: نعم. فصاح صائحٌ من داخل البُسْتان: يكذب، ما هي له. فخاف ابنُ الدوامي وغِلْمانُه، وقاموا إلى الباب وهو مُغْلق، فطافوا البُسْتان، فلم يَرَوْا أحداً، فعادوا وجلسوا، فقال له ابنُ الدوامي: أنشدنا أخرى، وأنشده، فقال له: هذه لك؟ قال: نعم. فصاح ذلك الصَّوت بعينه: يكذب، ما هي

---

(١) له ترجمة في «الكامل»: ١١/ ٥٠٣، و«كتاب «الروضتين»: ٣/ ٢٠٢، و«وفيات الأعيان»: ٤/ ٤٦٣ـ٤٦٥، و«الوافي بالوفيات»: ٢/ ٢٤٤ـ٢٤٦.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) في (ح): ومن شعره في رجل كفل يتيماً، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) يعني ابن هبيرة.

(٥) في (ح): فأنشده، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

له. فقاموا وفتَّشوا، فلم يروا أحداً، فقال: أنشدنا أخرى، فأنشده ثالثة، فقال: هذه لك؟ قال: نعم. فصاح ذلك الصَّوت بعينه: يكذب، ما هي له، فقال له الأبله: فخبِّرْه ما هي لي، فلمن هي؟ فقال: لي. قال: ومَنْ أنتَ؟ قال: شيطانك الذي أعلمك قول الشِّعْر، فقال له: صَدَقْتَ، والله يحفظك عليَّ، ولا يفرق بيني وبينك.

وقال أبو الدر الرُّومي الشَّاعر: مَرِضَ الأَبْله، فدخلت [عليه] أعوده، فقال: ما بقيتُ أقدر أنظم شيئاً. قلتُ: فما سببه؟ قال: لا شك أَنَّ تابعي قد مات، وتوفي بعد ذلك في جُمادى الآخرة، وترك ثلاثة آلاف دينار.

[قلت: والدليل على صحة هذه الحكاية قول الشاعر: [من الرجز]

إنـي وكـلُّ شـاعـرٍ مـن الـبَـشَـرْ شـيـطـانـه أنـثـى وشـيـطـانـي ذكـرْ][1]

السنة الثَّمانون وخمس مئة

[وفيها كتب زين الدين ابنُ نُجَيَّة الواعظ من مصر إلى صلاح الدين يشوِّقه إليها، وكان السلطان بدمشق، قال: أدام الله أيام مولانا السلطان الملك الناصر، وقرنها بالتأييد والنَّصر والتسديد، أترى ما يشتاق مولانا إلى مصر ونيلها، وخيرها وسلسبيلها، ودار مُلْكه ودارة فلكه، وبحرها وخليجها، ونشرها وأريجها، ومقسم مقاسمها، وأُنس إيناسها، وقصور مُعِزِّها ومنازل عِزِّها، وجيزتها وجزيرتها، وبَرَكتها وبِرْكتها، وتعلق القلوب بقَلْيُوبها، واستلاب النفوس بأسلوبها، وملتقى البحرين، ومُرْتقى الهرمين، وروضة جِنانها، وجَنَّة رِضْوانها، ومشاهدها ومجامعها، ومساجدها وجوامعها، ونواظر بساتينها، ومناظر ميادينها، وساحات سواحلها، وآيات فضائلها.

وذكر ابن نُجية كلاماً طويلاً من هذا الجنس.

فكتب إليه السلطان: ورد كتاب الفقيه زين الدين ـ أدام الله توفيقه ـ لا ريب أن ساكن الشام أفضل، وأن أجر ساكنه أجزل، وأن القلوب إليه أميل، وأن زلاله البارد أعل وأنهل، وأن الهواء في صيفه وشتائه أعدل، وأن الجمال فيه أجمل، والجمال به أكمل، وأن القلب به أروح، والروح به أقبل، ودمشق فعاشقها مستهام، وما على

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).